أهمية التكامل المعرفي بين علوم الطب وعلوم الوحي عند الأطباء في تحقيق مقصد حفظ الصحة

أمينة عراقي حسيني
MOROCCO

إن قضية الرعاية الصحية للمواطنين هي من أكثر قضايا التخطيط إثارة للجدل في عصرنا الحالي، وذلك لأن الإنسان هو هدف التنمية، كما أنه وسيلتها، والصحة هي أولى متطلبات وأهم مقومات الحياة، ولهذا تعتبر الرعاية الصحية للأفراد من أهم مؤشرات التنمية البشرية في البلدان ويعتمد عليها في ترتيب هذه الدول في سلم التنمية.فالمسؤولية الأولى في المحافظة على الصحة تقع على الأطباء والعاملين في القطاع الصحي، عليهم أن يوظفوا طاقاتهم وإمكانياتهم لخدمة المجتمع خاصة في المجال الصحي، وعليهم أن يمارسوا مهنتهم على أقصى درجة من المعرفة والكفاءة والصدق والأمانة والاطلاع على ما يستجد في مجال تخصصهم, ويكون هدفهم الأول هو حفظ صحة المواطنين وقاية وعلاجا. ويأتي بعد ذلك دور كل من الأسرة والمدرسة والمسجد والإعلام قصد تظافر الجهود بهدف تعميم تربية صحية صحيحة تكون حصنا للمواطنين من جميع أنواع الأمراض، ولا يتأتى هذا إلا بتقوية الوازع الديني والأخلاقي والقيمي لدى الأجيال الناشئة.

ولقد انتبهت المنظمات العالمية المهتمة بالصحة لهذا الأمر، وأصبحت تشجع على إدماج الخطاب الديني لتعزيز الصحة وحمايتها من خلال نتائج الأبحاث العلمية التي بينت فعالية هذا الخطاب في تحقيق الهدف الذي تنشده هذه المنظمات وهو: "الصحة للجميع"، خصوصا في الدول والمجتمعات التي يحتل فيها الدين جانبا كبيرا في الحياة اليومية، لأن الإسلام رفع من مكانة الصحة باعتبارها حقا أساسيا لكل إنسان منذ خمسة عشر قرنا؛ وذلك من خلال قوله صلى الله عليه وسلم: "إن لجسدك عليك حقا" وقوله: "وإن لنفسك عليك حقا".ومن هنا جاءت فكرة تقديم هذه الورقة بعنوان: **"أهمية التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الطب عند الأطباء في تحقيق مقصد حفظ الصحة"** لهدفين:

- بيان أهمية إدماج الخطاب الديني في توعية جميع شرائح المجتمع بالمبادئ الصحية الوقائية لعلاج بعض الظواهر السلبية المنتشرة في المجتمع والتي لها تأثير سلبي على الصحة، مثل إهمال النظافة وعدم المحافظة على البيئة وسوء التغذية، والتعرض للأمراض المتناقلة جنسيا وجميع أنواع الإدمان (التدخين، الخمر، والمخدرات ...).
- بيان أهمية التكوين الشرعي للأطباء مما يزكي عندهم مراقبة الله أثناء مزاولة مهنتهم الشريفة فينخرطوا بتفاني للحفاظ على صحة المواطنين وقاية وعلاجا.

أهمية الموضوع:

تتجلى أهمية هذا الموضوع ابتداء في إبراز خصوصية الشريعة الإسلامية في التأصيل لمفهوم حفظ الصحة، وما يكتسيه من راهنية في واقعنا المعاصر نظرا للاهتمام المتزايد بالعناية بالصحة، وخاصة الطب الوقائي.

ونظرا لارتباط هذا الموضوع بحفظ النفس، وما يتعلق بها من رعاية للصحة، فإن له أهمية كبيرة في إبراز الأبعاد المقاصدية للحفاظ على الصحة، ودورها في رعاية الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

أسباب اختيار الموضوع:

أمام الاتجاه المتزايد نحو التخصص أصبح الطبيب يغوص بعلمه إلى أعماق تخصصه؛ وهذا شيء ممدوح لأنه يصبح متمكنا من التشخيص والعلاج، ولكن الجانب السيئ أنه ينسى التعامل مع المريض ككل جسدا وعقلا ونفسا، ويصبح هدفه كله هو علاج العضو المصاب.

ما نلامسه عند بعض الأطباء من انفصال بين الوقاية والعلاج وإهمال التربية العلاجية بينما المأمول فيهم هو المشاركة في رفع المستوى الصحي لأفراد المجتمع جسديا وعقليا ونفسيا واجتماعيا، وهذا يتطابق مع تعريف الصحة الذي أعطته المنظمة العالمية للصحة.

غياب معيار: "ما يعطيه الطبيب لآخرين" من معايير نجاح الأطباء التي أصبحت في العصر الحالي تقتصر على الحصول على أعلى الشهادات وأكبر قدر من الشهرة والربح المادي مع العزوف عن الأعمال التطوعية الخيرية التي ترعى مصالح المرضى الفقراء والمعوزين.

ضعف اهتمام الأطباء بالوقاية من الأمراض .

فشل بعض المشاريع الصحية المستوردة مما يستوجب تضافر جهود الأطباء المسلمين لتبني برامج توعوية وقائية تتوافق مع التقاليد والقيم الدينية والثقافية لمجتمعاتنا مما يضمن فعاليتها في تصحيح سلوكات جميع شرائح المجتمع. غياب مادة علمية متخصصة بمرجعية دينية يمكن للمربين الاعتماد عليها للمشاركةبها في التوعية الصحية.

خطة البحث:

اعتمد تصنيفُ المادة العلمية خطة تتلاءم وطبيعةَ الموضوع وخصوصية مباحثه، في مدخل تمهيدي، وخمسة فصول بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة.

اختصت المقدمة بالتعريف بالموضوع وأهميته، ودوافع البحث، وخطته.

إعـــــداد:

أمينة عراقي حسيني
Amina.derma@hotmail.fr

الفصل الأول: تأصيل حفظ الصحة

المبحث الأول: تأصيل حفظ الصحة من الكتاب

المبحث الثاني تأصيل حفظ الصحة من السنة

المبحث الثالث: حفظ وعلاقتها بمقاصد الشريعة

الفصل الثاني: مسؤولية الأطباء في حفظ الصحة

المبحث الأول: حاجة الأطباء الى دراسة التراث الإسلامي في مجال الطب

المطلب الأول: نماذج من الأطباء المسلمين الأوائل الذين جمعوا بين علوم الطب وعلوم الشرع

المطلب الثاني: بعض مؤلفات الأطباء المسلمين في مجال الطب

المبحث الثاني: حاجة الأطباء إلى علوم الوحي

المطلب الأول:ركائز المنهج الإسلامي:

أولا: الإيمان

ثالثا: العلم

المطلب الثاني: خصائص الطبيب المسلم

أولا: الإيمان بشرف المهنة

ثانيا: تهذيب النفس للتحلي بأخلاق المحبة، الصدق، الاعتدال، التواضع

المطلب الثالث: علاقة الطبيب بالمريض

أولا: التعامل مع المريض ككل جسده وعقله ونفسه

ثانيا: طمأنة المريض

ثالثا: تحمل المسؤولية

المطلب الرابع: علاقة الطبيب بالمجتمع

الفصل الثالث: أهمية استثمار الخطاب الديني في التوعية الصحية

المبحث الأول: مظاهر عناية الشرع الاسلامي بالوقاية من الأمراض الجسدية

المطلب الأول: أهمية الطهارة وما يستتبعها من خصال للفطرة

المطلب الثاني: العبادات وما يترتب عليها من آثار صحية

المطلب الثالث: الآداب الإسلامية السمحة المتمثلة في آداب الأكل والشرب

المطلب الرابع: النهي عن جملة من المحرمات

المبحث الثاني: مظاهر عناية الشرع بالوقاية من الأمراض النفسية من خلال بيان علاقة الإيمان بالصحة النفسية وتأثيره على صحة الفرد والجماعة من الناحية العملية، واقتراح بعض الوسائل الإجرائية المحققة للطمأنينة والأمن الروحي، وختم ببيان أهمية النوم والترويح عن النفس ووأثرهما على الصحة النفسية.

المبحث الثالث: حاجة الطبيب إلى معرفة القواعد الفقهية:

وانتهت خاتمةُ البحث إلى جملة من الخلاصات والاستنتاجات التي توصلت إليها الدراسة.

المدخل التمهيدي:

إن التباين الشديد في مستويات الرعاية الصحية بين الشعوب مشكلة لم يستطع الطب الحديث أن يتغلب عليها، هذه الفروق نستطيع أن نبررها جزئيا بالفقر والأوضاع السياسية والاجتماعية، ولكننا لا نستطيع أن نعفي العاملين في القطاع الصحي من مسؤولياتهم حيالها. فإننا نرى أن في كثير من البلدان الفقيرة، لا توجه المصادر المحددة توجيها سليما، فنرى المشاريع الوقائية مع أنها أرخص وأجدى تتوارى في الظل، وتعطي الأولوية للمستشفيات الضخمة على حساب الرعاية الصحية الأولية التي تتمثل في التربية على النظافة والتغذية الصحية، واجتناب الخبائث والفواحش، ومكافحة الحشرات وإصحاح البيئة، والاكتشاف المبكر للأمراض.

إن الأسباب الرئيسية في هذا القصور، يرجع إلى العاملين في قطاع الصحة وعلى رأسهم الأطباء، الذين أصبحوا يتهافتون على العلاجات التي تجلب لهم أكبر ربح مادي وأكبر قدر من الشهرة، بينما يهملون الاهتمام بالمشاريع الصحية الوقائية، ولا يبالون بالأعمال التطوعية التي تسعى لمعالجة المرضى الفقراء.

لقد أصبح اهتمام عدد من الأطباء يرتكز على ما يستطيع الطب أن يحقق لهم، وليس ما يستطيعوا أن يحققوا هم بوصفهم أطباء للآخرين، وهذه معايير دخيلة على حضارة المسلم وثقافته لأن الشرع الإسلامي جعل حفظ الصحة من مقاصده الكبرى وإذا تأملنا في الضروريات الخمس التي وضعتها الشريعة الإسلامية بل اتفقت كل الملل على حفظها، نجد أن ثلاثا منها وهي النفس والعقل والعرض تتحقق بحفظ الصحة، ونجد أن الآخرين وهما حفظ الدين والمال تعتمدان على حفظ الصحة، فالشريعة الإسلامية قرآنا وسنة، وما تضمنته من مقاصد عامة وخاصة، كانت سباقة إلى الدعوة إلى الحفاظ على الصحة ورعايتها، وهذا ما سنتطرق إليه في الفصل الأول من هذا البحث الذي خصصناه لتأصيل حفظ الصحة.

الفصل الأول: التأصيل لحفظ الصحة

المبحث الأول: تأصيل حفظ الصحة من القرآن الكريم

لقد عُني القرآن الكريم بالصحة عناية كبيرة؛ حيث عرض إلى مسائل هامة تحض على الاعتناء بالصحة وسلامة الجسم، وتقدم توجيهات رشيدة في تحليل بعض الأطعمة والأشربة لأغراض صحية، وهو ما يؤكد لنا أصالة الحفاظ على الصحة في القرآن الكريم، ينضاف إلى ذلك تأكيد الحق سبحانه على مقصد الشفاء؛ حيث ورد في مواطن كثيرة، منها: قوله تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا). وبالإضافة إلى ذلك، فإن توجيهات القرآن الصحية والوقائية، ونهيه عن بعض المحرمات، وإشاراته إلى بعض المعجزات يعتبر القواعد الأساسية، والأسس الرئيسة التي ينبني عليها علم الطب بكافة فروعه؛

المبحث الثاني: تأصيل حفظ الصحة من السنة النبوية

إن المتأمل في السنة النبوية يجدها زاخرة بالتدابير والتوجيهات والوصايا الوقائية التي تؤكد أن الوقاية الصحية في الإسلام مبدأ شرعي أصيل؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن لجسدك عليك حقا"، ويقول أيضا: "المؤمن القوي خير

وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف". كما يجدها متضمنة لتدابير علاجية رائعة تنظم حياة المسلم وسلوكاته، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء". وهذا تصريح جلي على أن العلاج بالدواء تدبير شرعي أصيل في الإسلام.

ومن يتأمل هدي النبي صلى الله عليه وسلم يجده أفضل هدي عني بحفظ الصحة وسلامة البدن ووقايته من المرض، يقول الإمام ابن القيم الجوزية رحمه الله في كتاب زاد المعاد :" من تأمل هدي النبي صلى الله عليه وسلم وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب والملبس والمسكن والهواء والنوم واليقظة والحركة والسكون والمنكح والاستفراغ والاحتباس، فإن حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبلد والسن والعادة، كان أقرب إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل". ويندرج في هذا الإطار أيضا توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالنظافة والحرص عليها,وعنايته صلى الله عليه وسلم بالاعتدال في الطعام؛ وهو القائل: "ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه، حسب ابن آدم ثلاث أكلات يُقِمْنَ صلبه فإن كان لا محلة فثلث طعام وثلث شراب وثلث لنفسه" كما انصرفت عنايته أيضا إلى الاهتمام بنوعية الغذاء وأهميته في الوقاية من الأمراض وتقوية المناعة فوردت العديد من الأحاديث التي تؤكد أهمية بعض الأطعمة الطبية والصحية.

المبحث الثالث: الطب وعلاقته بمقاصد الشريعة

إن الاهتمام بالطب يحفظ المقاصد الكلية الخمس للشريعة الإسلامية؛ ففيه حفظ الدين لأن حفظ الأبدان من الأديان وبالأبدان تقام الأديان؛ فالمسلم المعافى يؤدي العبادات على أحسن وجه، ويستطيع القيام بالدعوة إلى الله، ورد الاعتداء عن دينه، وفيه حفظ النفس لأن الحفاظ على الصحة هو حفاظ على النفس ماديا ومعنويا، ويبعدها عن كل ما يعرضها للتهلكة، وفيه حفظ للنسل والنسب، ذلك بالابتعاد عن الزنا وتحريم الإجهاض والترغيب في الزواج الشرعي، وفيه حفظ للمال لأن المرض يسبب خسارة مادية لما ينفق في التشخيص والتمريض والعلاج، بالإضافة إلى نقص الدخل الناتج عن تغيب المريض عن العمل، والوقاية خير من العلاج الوقاية لأنها تتطلب مصاريف أقل بكثير من العلاج، فهي في أغلب الأحيان على شكل وصايا صحية سهلة التطبيق. ويجدر التنبيه في هذا المقام إلى أن الوقاية من الأمـراض والأضرار مبدأ إسلامي أصيل يدخل ضمن المقصد العام الذي وضعت الشريعة الإسلامـية من أجله، وهو جلب المصالح ودرء المفاسد عنهم.

يتبين لنا من خلال ما حواه القرآن الكريم من آيات معجزات تضمنت كثيرا من التوجيهات الحكيمة وما أرشد إليه رسولنا الكريم من مفاهيم الطبال، أن منهج الإسلام في حفظ الصحة قد حاز فضل السبق بالنظر إلى إطاره الزمني ومجالها لحضاري، وكان خليقا بأن يحتل مكانه من الصدارة والمصداقية، والشعار المعروف "الوقاية خير من العلاج" شهد أو لبذرة له في عصر الطب النبوي. ولعل أهم مظاهر القوة في هذه التوجيهات والإرشادات أنها مرتبطة بالإيمان؛ إذ جعلها الدين الإسلامي من متممات الإيمان الحق، وجعل القيام بها عبادة يتقرب بها الإنسان إلى ربه، فيثاب عليها وينال رضوان الله عز وجل مما يجعل المسلمين يلتزمون بها لأنها جزء من دينهم فتعود عليهم بخيري الدنيا والآخرة، ومن هنا تتجلى مسؤولية الأطباء المسلمين لإبراز مقاصد الشرائع الإسلامية.

الفصل الثاني: مسؤولية الأطباء في الحفاظ على الصحة

إن المسؤولية الأولى في المحافظة على الصحة تقع على الأطباء فعليهم أن يمارسوا مهنتهم على أقصى درجة من الكفاءة والأمانة وجعل مصلحة المريض فوق كل المصالح وأن يشاركوا بفعالية في البحوث والإحصاءات التي تفيد في إيجاد الحلول المناسبة للمشاكل الصحية , مع تبني برامج توعوية منسجمة مع التقاليد والقيم الدينية والثقافية السائدة في المجتمعات التي ستطبق عليها ضمانا لفعاليتها، ويحتاج الأطباء لتقوية مسؤوليتهم المهنية إلى الرجوع إلى تاريخهم العريق وكذلك تقوية الوازع الديني ومراقبة الله في السر والعلن. وأؤكد أننا عندما نتحدث عن الطبيب، فنحن نعني جميع العاملين في حقل الخدمات الصحية لأن فئة الممرضينتعد من أهم فئات القوى العاملة الصحية ؛ حيث أثبتت الدراسات أن 80% مما يقدم للمريض من رعاية و للفرد في حال الصحة , يقدم بواسطة التمريض .

المبحث الأول: حاجة الأطباء إلى دراسة التراث الإسلامي في مجال الطب

قد يرى بعض المثقفين أن التركيز على ما يمكن للعلم في حاضره ويمهد لازدهاره وتطوره أجدى على هذه الأمة من أن تضيع أوقات علمائها بتحقيق والبحث في مخطوطات ومؤلفات الأطباء المسلمين الأوائل، غير أن استقراء تاريخ الأمم، يشهد أن هذه الأمم، حينما تشرع في النهوض بعد سبات تعود إلى ماضيها وتعمل على إحيائه بشتى الصور، بل وتثبت المضيء من ماضيها على صفحات الكتب المدرسية الجامعية أحيانا. وهل يخلو كتاب من الكتب العلمية من أسماء: ديكارت، وهارفي، وروجر باكون ونيوتون ودالتون وباستور.... وغيرهم.

وليس أحسن للشباب الذين على أكتافهم تقوم نهضات الأمم. من أن يجد بين يديه تراثا علميا يزخر بحقائق العلم والمعرفي، ويموج بالكنوز الثمين في مجالات شتى العلم، ومن هنا تتبين أهمية إحياء تراثنا الإسلامي الذي طالما انكب الأسلاف على تدوينه وإعداده وأفنوا الليالي زاهدين في الدنيا حتى خلدوا تراثا ضخما ملأ في ما مضى ولا يزال يملأ جنبات مكتبات أوروبا، وكان نبراس نهضتها، نقل بعضه إلى اللاتينية وانتفع منه في التدريس والبحث في الجامعات الأوربية حتى السابع عشر الميلادي, وكان السبب الرئيس في النهضة العلمية العارمة التي اجتاحت بلدان الغرب في القرنين الماضيين. إن لوقوف على مثل هذا التراث يشحن الهمم ويثير الاعتزاز ويعيد للنفوس المكلومة تفاؤلها ونشا ويساعد على استئناف السير.

تقول زيغريد هونكه: "كل موجة علم أو معرفة قُدمت لأوروبا في ذلك العصر، كان مصدرها البلدان الإسلامية، ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلاَّ حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسياً وعلمياً وتجارياً، واستيقظ الفكر الأوروبي من سُباته الذي دام قروناً، على قدوم العلوم والآداب والفنون، ليصبح أكثر غنى وجمالاً،

وأوفر صحة وسعادة". وإذا كان الأطباء المسلمون قد أهملوا إلى حد الآن تراثهم العلمي في مجال الطب فهذا لا يبرر أن ننطوي على أنفسنا ونتصور أننا غير قادرين على تطوير أنفسنا، وعلى النهوض بتفكيرنا وعملنا العلمي. فمازلنا بفضل الله ثم بالرجوع إلى تراثنا أن نستخلص منه القيم العلمية السليمة والمنهج القويم في التكبير والدرس والتدريس والبحث العلمي.

المطلب الأول: نماذج من الأطباء المسلمين الذين جمعوا بين علوم الطب وعلوم الوحي

ولقد كان كثير من الفقهاء على دراية بعلوم الطب، وكذلك كان كثير من الأطباء على دراية بعلوم الدين، بل كان هناك من جمع الله له من علم الطب وعلم الفقه الكثير، حتى أنه كان علما فيهما معا.. ومن هؤلاء أبو الوليد **ابن رشد** القرطبي الأندلسي صاحب كتاب **"الكليات"** في الطب، وصاحب كتاب **"بداية المجتهد ونهاية المقتصد"** في الفقه... وقد تولى القضاء ودرس الفقه والطب والفلسفة.. ومنهم **ابن النفيس** مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وكان يعد من فقهاء الشافعية، وكان **ابن سينا** من أكبر أعلام الطب وأعلام الفلسفة، وكان مشاركا في علوم اللغة والفقه، وسيطول بنا المقام كثيرا لو تتبعنا أساطين الفقه والحديث والطب، فإننا سنجد أن ثقافة هؤلاء واسعة متداخلة.. **وكان لا يمكن دراسة الطب في الغالب إلا بعد أن يدرس الطالب القرآن الكريم ويحفظه ويحفظ شيئا من علوم الحديث والفقه واللغة**. لهذا كله لم يكن هناك انفصام نكد بين علوم الطب وعلوم الدين، ولا علوم الدنيا وعلوم الدين، فكلها مترابطة وكلها من العلوم التي تدخل في فروض العين أو فروض الكفاية.

كما ساهم الأطباء المسلمون الأوائل في الوقف على المستشفيات، نذكر مثال: **سنان بن ثابت**، الذي أشار على المقتدر بأن يتخذ بيماريستانا ينسب إليه فأمر بإنشائه في باب الشام وسماه بـ"البيماريستان المقتدري" وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار، وافتتح سنان بن ثابت – أيضا – "بيماريستان السيدة" الذي بناه بسوق يحيى على دجلة، وجلس فيه ورتب المتطببين، واستقبل المرضى، وكان النفقة عليه في كل شهر ستمائة دينار، وعندما نجح سنان بن ثابت في تقويم أطباع الأمير "بَجْكَمْ"، وبين له الفرق بين الخير والشر، عمل الأمير بنصيحة سنان، وأنشأ بواسط في وقت المجاعة دار ضيافة، وببغداد بيماريستانا يعالج فيه الفقراء، ورفه الرعية، وأنصف في معاملاتها. ومن مآثر الأطباء في هذا الصدد ما رواه ابن أبي أصيبعة عن بدر الدين بن قاضي بعلبك فقال: "ومما وجدته قد صنعه من الآثار الحسنة التي تبقى مدى الأيام، ونال بها من المثوبة أوفق الأقسام، إنه لم يزل مجتهدا حتى اشترى دورا كثيرة ملاصقة للبيماريستان الكبير الذي أنشأنه ووقفه الملك العادل "نور الدين محمود بن زنكي" –رحمه الله– وتعب في ذلك تعبا كثيرا , واجتهد بنفسه وماله حتى أضاف هذه الدور المشتراة إليه، وبناها أحسن بناء وشيدها وجعل الماء فيها جاريا فتكمل بها البيماريستان، وأحسن في فعله ذلك غاية الإحسان.

ومن مكارم أخلاق الأطباء ما حدث به علي بن محمد بن أبي الصلحي أحد أطباء مصر المشهورين أنه حول دوره إلى ما يشبه البيماريستان يأوي إليه المرضى من الفقراء، فيعالجهم ويقدم لهم الأغذية والأدوية ويقوم بخدمتهم مجانا، وكان ينفق أكثر مدخوله في هذا السبيل، أردت أن أذكر نماذج من الأطباء المسلمين الأوائل الذين تطوعوا بأوقاتهم وخدماتهم مجانيا لعلاج الفقراء وتيسير سبل رعايتهم والعناية بهم بالمساهمة في تشجيع الوقف في المجال الطبي مما ساعد على تنمية العلوم الطبية في مجال علاج الأمراض ومقاومة الأوبئة وحماية البيئة في العصور الأولى وتجاوزت رسالته العالم الإسلامي إلى غيره.

المطلب الثاني: أهم امؤلفات الطبية في تاريخ العلوم عند المسلمين

لقد كان تأثير الأطباء العرب في مجال تطور العلوم الطبية في أوربا واضحا وجليا من خلال أمرين اثنين: أولاهما تلك الترجمات التي قام بها الأطباء العرب للكتب الطبية القديمة الإغريقية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية والتي بدورها ترجمت ثانية الى اللغة اللاتينية في بدايات عصر النهضة.

أما التأثير الآخر للأطباء العرب فقد كان من خلال ما أضافوه وما أبدعوه في مجال الطب، وذلك من خلال الخبرات العملية التي كانوا قد اكتسبوها نتيجة لممارساتهم للطب، في البيماريستانات التي كانت منتشرة في كافة أرجاء البلاد الإسلامية، لقد ساهم الأطباء العرب في شتى فروع الطب التي كانت معروفة وقتئذ، ابتداء بعلم التشريع وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأجنة وعلم الأمراض والأدوية، فضلا على الطب الباطني وطب الأطفال وطب العيون والجراحة بمختلف أنواعها وأخيرا علم آداب الطب وسلوك الأطباء الذي كثرت فيه المؤلفات. إن موضوع أدب الطب والسلوك الشخصي والمهني للأطباء المسلمين كان من أهم اهتمامات المؤلفين المسلمين الأوائل التي تزخر بها المكتبات في العالم العربي والغربي، ومن هذه المؤلفات:

1– كتاب "**أدب الطبيب**" "لإسحاق الرهاوي" المتوفى في الربع الأول من القرن الرابع الهجري تقديرا، تعرض فيه إلى مشكلة السلوك العلمي والمهني للطب في عصره، تلك المشكلة التي أفرزت وأخرجت إلى ساحة التطبيب مجموعة من الأطباء جهلة الذي أصبح وجودهم خطرا يهدد حياة الناس ويسلب أموالهم.

قال إسحاق بن علي الرهاوي في كتابه "أدب الطبيب":" فإن الخصال اللائقة بالحكام هي أو أكثرها لائقة بالطبيب أيضا، وقد قال أرسطو طاليس: "تفقد من الحكام أربعَ خصال، أن يكون حسيبا، وأن يكون عالما، وأن يكون وَرِعًا، وأن يكون غير عجول") وإذا نقلت هذه الأقاويل إلى الطبيب وجدتها به لائقة، وعليه واجبة، إذ الطبيب حاكم في النفوس والأجسام، ولا يشكّ أحد في أنّ النفوسَ والأبدان أشرفُ من الأموال، فلذلك ينبغي للطبيب أن يأخذ نفسه بالآداب والعلوم النافعة له في صناعة الطب، وبغير شك أن من لم يحط بما أذكره وأطرحه سيخجل إن كان له أدنى حسّ، وأن يكون له مع الحسّ يسير من العقل، فإنه سيستحي من الله جل ذكره، الذي أنعم على الناس بصناعة الطب، ومنح بها أفاضل يستحقون تعلمها، يخافونه ويرهبونه قبل الإقدام على علمها، فضلا عن العمل بها، وسيرى هذا المتجرئ على الله وعلى أهلها أن مزاحمته لهم، ودخوله بينهم بغير نصيب منها، قبيح جدا، فإن بعثه خجله على تأديب نفسه، وإصلاح أخلاقه، قم قصد أهلها بلطف وأدب، وحسن مسألة، فتعلم منهم، وخدم بين أيديهم في أعمالها، أمكنه حينئذ جمع العلم والعمل أن يحفظ

صحة الأصحاء وأن يعالج المرضى... "

2- كتاب "**التشويق الطبي**" "لأبي العلاء صاعد بن الحسن الطبيب"، المتوفى دون تحديد بعد عام 464هـ موافق 1071م: الذي كتبه في هيئة نصائح طبية إلى ولي الأمر في محاولة منه للدعوة إلى العمل على إحياء ما عفا من رسومها، ونشر ما انمحى من محاسنها، والرقي بها عن طريق الاهتمام بأساتذتها وتلامذتها، ومما صدر في هذا الكتاب: من صفات الطبيب أن يكون معتدلاً في مزاجه، طاهراً في نفسه، متمسكاً بدينه، لازما لشريعته، وافر العقل، قوي الذكاء، حسن التصور، معروفاً بصدق اللهجة وأداء الأمانة، مهتماً بما يعينه، محباً لاصطناع الخير، يساوي ظاهره باطنه في أفعال الجميل، حسن الخلق غير شره إلى المكسب ولا حاسد على المال، متأدباً بالسير والأخبار المتقدمة، صحيح الخط والعبارة، مواظباً على دراسته وقراءته ونظره في علوم الأوائل شفيقا رقيق اللسان رحيماً للضعفاء والفقراء، سابقاً إلى معالجتهم قبل معالجة الأغنياء، شديد العناية بجمع كتب "ابقراط" "وجالينوس"، ومن يرى رأيهما والاجتهاد في فهمهما والبحث عن غوامضها ومذاكرة أهلها,مشهوراً بالحذق والبراعة في صناعته عند ذوي العلم، معروف الأستاذين والشيوخ، ظاهرا عليه مع ذلك علمهم وفضلهم ليصح نسبه إليهم مجيباً عما يسئل إذا عرف ومتوقفاً عما لا يعرف حتى يتفكر ويبحث، ولا يستحي من الازدياد ولا يمل من الحرص والاجتهاد، غير معجب ولا متكبر، مذكراً بما كان مخبراً بما هو كائن، منذراً بما سيكون من أحوال من يعالجه من المرضى، ممارساً وصافاً عفيف الطرف والبطن والفرج، كتوما للأسرار قليل المزاج والهزل، غر مغرى بشرب الخمر ولا مولع بالفسق والفجور.ويكون كثير التدرب والعناية بمزاولة المرضى وخدمتهم، والدخول إلى البيمارستانات والنظر في القوانين الطبية والارتياض بالصناعة المنطقية ومطالعة العلوم الرياضية، مثابراً على ذلك مجتهداً حريصاً على القراءة والتصفح، طويل الروح غير ملول ولا ضجر ولا متعلق القلب بغير هذا ولا يتلذذ بشيء سواه، ولا يقوم عنده شيء من المقتنيات بالجملة مقامه ولا يقضي زماناً من عمره إذ أمكنه إلا فيه، ويحتاج مع ذلك إلى توفيق إلهي. وحقيق بمن كانت هذه صفته أن يمده الله بالمعونة ويعضده بالتوفيق وترمقه الأبصار بالجلالة والوقار وأن ينصره على السوفسطائيين المموهين المغالطين، فإذا وجب الطبيب كذلك فهو الذي ينبغي أن يركن إليه، ويعول في علاج المرضى عليه، ويجب عليه بعد ذلك أن يلزم الشروط والقوانين التي سنذكرها وهي هذه.

3- "**أخلاق الطبيب**" "لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي" الذي أضاف إلى الصفات التي ذكرناها تلطف بالمريض والرفق به والحلم في استجوابه وتفهيمه نوعية مرضه على نحو يتماشى مع وضعه الثقافي، فقال: "ينبغي للطبيب أن يوهم المريض الصحة ويرجيه بها، وإن كان غير واثق بذلك لأن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس". ما ذكرناه ما هو إلا غيض من فيض لما أفاضت به كتب ومخطوطات أسلافنا من أطباء العرب التي ازدحمت بها رفوف المكتبات العلمية في بلاد الشرق والعرب.

المبحث الثاني: حاجة الأطباء إلى علوم الوحي

إن السؤال الذي نطرحه في مطلع هذا الفصل هو: لماذا يحتاج الطبيب لعلوم الوحي؟

لكي يهتدي بهدي الكتاب والسنَّة في سعيه إلى الخلق الكريم.

لكي يربط علمه وعمله بخير الإنسان.

لكي يهذب نفسه ويربيها على مبادئ الفضيلة والشرف.

لكي يجد في نفسه الدافع للتعلم والمثابرة والإتقان.

وأخيرا لكي يتقي الله في عمله.

مهما حاولنا أن نجد في مناهج البشر ما يمكن أن يربي الطبيب، ويهذب سلوكه، فلن نجد مثل منهاج الله وتعالى، الذي جاء في كتابه الكريم، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، بمعنى أن التربية الإسلامية الصحيحة، يجب أن تحيط بالطبيب منذ نشأته الأولى في طفولته، وتدرج معه في صباه، وشبابه، ورجولته، وكهولته، حتى يستقيم له الخلق القويم والسلوك الصحيح.

إن الدين الإسلامي يرسي للطبيب قاعدتين أساسيتين:

يوفر له النظرة الشمولية للحياة.

يدله على مكارم الأخلاق ويحثه عليها.

يقول سبحانه وتعالى في محكم كتابه:﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ [سورة الذاريات: 56].هذا هو الغرض الأساسي للخلق، ولوجود الحياة على وجه البسيطة، عبادة الله سبحانه وتعالى، وجزء من عبادة الله عمارة الكون، الله واحد وإليه ينتهي كل البشر، جميع الأسباب موصولة به سبحانه، وكل الطرق مفضية إليه جلَّ وعلا، جميع ابن آدم خلقوا لعبادة الله، وهم مطالبون بتحقيق ذواتهم من خلال العمل الصالح، والعلاقات الإنسانية التي تربطهم بروابط الخير والمحبة. النظرة الشمولية تقتضي أن تنتظم الفضائل الإنسانية كلها بعقد واحد موصول الأطراف، والقرآن يحدد هذا العقد من الفضائل بكلمة البر.

يقول تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وءاتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وءاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ [سورة البقرة: 177].

هي آية جامعة شاملة لمعاني الإيمان والإحسان والصبر والصدق والتقوى، تنبئنا بأن الدين وحدة متماسكة وأنه منهج حياة. عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس" [رواه مسلم].وهو ما دعوناه بالنظرة الشمولية للحياة.

ونأتي الآن للسؤال الذي يفرض نفسه: ما الذي يقدمه المنهج الإسلامي للطبيب حتى يستقيم سلوكه ومعاملاته؟ نستطيع أن نلخص الإجابة في نقطة واحدة هي: أن الدين الإسلامي يرسي للطبيب عدة ركائز اهمها الإيمان والعلم:

1. الإيمان: الإيمان بالله الذي يملأ جوانح النفس، يطهرها، ويسمو بها عن الصغائر، ويجعلها تنتهج المثل العليا، كيف لا وقد جعله الله زينة في قلوب المؤمنين وهو عطاء من عطاء الله يقول تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ

أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْكُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات:١٧)ويعلق الشهيد السيد قطب على هذه الآية الكريمة بقوله: "إن الإيمان هو كبرى المنن التي يمن الله بها على عبد من عباده في الأرض، إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد، وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والحياة والمتاع، وأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري، حيث تستقر حقيقته في قلبه، هو ساعة تصوره لهذا الوجود، ولارتباطاته هو به ولدوره هو فيه، وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله، وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حتى يلقى الله، وأنسه بما في الوجود حوله، وأنسه بالله خالق هذا الوجود، وشعوره بقيمته وكرامته، وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى عنه الله ويحقق الخير لهذا الوجود كله، بكل ما فيه وكل من فيه".

2– العلم: يبدأ القرآن أولى كلماته يوم أُنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق: 1–4)

ويقول تعالى في معرض تفضيل العلماء على غيرهم: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَوَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:٩). ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ.﴾ (البقرة: ٢٨). إن العلم بآيات الكون التي تؤدي الى معرفة الله والخشية له.ولنا أسوة في السلف الصالح من أطباء المسلمين وعلمائهم، الذي نشروا العلم والمعرفة في أرجاء الدنيا، يوم كانت أوروبا غارقة في الظلام، بدأوا بالاطلاع على علوم اليونان وفارس والهند، ثم أخذوا في التجربة والتطبيق والمقارنة والتأليف. إن الإيمان والعلم إذا اجتمعا يحفظان للإنسان، كرامته ويهديانه إلى الخلق الكريم، ويصلانه بالله سبحانه

المطلب الثاني: خصائص الطبيب المسلم

لكل مهنة أخلاقياتها التي من الضروري الالتزام بها من قبل الممارس ويعد الطب في مقدمة المهن التي لها أخلاقيات صارمة منذ الأزل، وقد اشترط أبو قراط مبدأ الطهارة والفضيلة في ممارسة مهنة الطب وهو الذي سار عليه الأطباء بعد ذلك، فأبو قراط يؤمن بالفضيلة ويجعل في مرتبة أحب إليه من المال لذلك رد المال وسعى لعلاج الفقراء مجانا وعزف عن المكوث مع الأغنياء لفترة أطول مقابل المال، وقسمه الطبي الذي صاغه كله يحافظ على الفضيلة ويلزم الممارس بها منذ بداية طلبه للعلم. نتوقع من الطبيب أن يكون رحيما، عطوفا، أمينا على رسالته، كتوما لأسرار مرضاه، حليما وقت الغضب، يوثر الآخرين على نفسه، يفي بعهده ويصدُق في كلمته ويملك زمام أمره، متواضعا مع زملائه ومرضاه، يراقب الله في عمله، ويومن بشرف مهنته.

1. الإيمان بشرف المهنة: مهنة الطب من أشرف المهن، بيد أن ذلك رهين بشرطين:

أولهما: أن تمارس بكل إتقان وإخلاص, يقول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".

وثانيهما: أن يراعي الطبيب في سلوكه وتصرفاته الخلق الكريم.

كيف لا تكون من أشرف المهن، والطبيب أكثر من غيره مؤتمن على صحة الإنسان وهي أثمن ما لديه. يصف ابن أبي أصيبعة صناعة الطب بأنها: "من أشرف الصنائع، وأربح البضائع، وقد ورد تفضيلها في الكتب الإلهية، والأوامر الشرعية، حتى جُعل علم الأبدان قريباً لعلم الأديان".

والإيمان بشرف المهنة مرتبط أشد الارتباط بالأهداف التي يضعها الطبيب أمامه. هذه الأهداف تحددها إلى مدى بعيد، المناهج الطبية التي يتلقاها الطبيب، وأكثرها –مع الأسف الشديد– أخذت من مناهج الطب في البلدان الغربية، دونما تفكير ولا تدبير، ولا نرى إلاَّ ترديداً لما قاله ابن خلدون من أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب، والسبب في ذلك: (أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها، وانقادت إليه. إما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به في أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك انتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبهت به وذلك هو الاقتداء). فالطبيب الذي يخاف الله، ويلتزم بآداب المهنة، قمين بأن يعيش حياة مادية كريمة، هو وأسرته.. وهناك ما يعوضه عن الثراء العريض.. لديه محبة الناس، وتقديرهم لعمله، وإيمانهم برسالته لذلك يلزمه رقابة الضمير، وهي أجدى وأبقى أثراً من أي رقابة خارجية، فكيف إذا ما كانت هذه الرقابة مرتبطة بخشية الله وتقواه، هنالك يصبح أثرها أبعد مدى، ودورها في تصحيح المسار، وتهذيب الخلق والسلوك أكثر وقعاً.

المطلب الثالث: علاقة الطبيب بالمريض

علاقة الطبيب هي من أهم العوامل التي تساعد على نجاح العلاج وتشمل جوانب كثيرة منها:

أولا: العناية بالمريض ككل

على الطبيب أن يتعامل مع مريضه بعناصره الثلاث: (الجسد، العقل والنفس), ونعني بالجسد مجموعة الأعضاء التي يتألف منها الجسم، والعقل نعني به مركز التفكير، والنفس نعني بها المشاعر والأحاسيس Holisticapproach .من المسلَّم به أن العناصر الثلاثة (الجسد والنفس والعقل) تتداخل معاً، ويؤثر أحدها على الآخر،.

ثانيا: طمأنة المريض

عندما يبعث الطبيب أو الممرض أو الممرضة أو أي أحد من الفريق الطبي الطمأنينة في نفس المريض، فإن ذلك يساعده على سرعة البرء من مرضه، فالطمأنينة والسكينة يشدان من عزيمة المريض ويرفعان من روحه المعنوية، ويقويان وسائل المناعة في جسمه.

ثالثا: تحمل المسؤولية

هناك جوانب عديدة، من مسؤولية الطبيب حيال مريضه، بالإضافة إلى التحلي بالأخلاق الحسنة وحسن التعامل مع المريض، هناك جوانب أخرى منها:

أن يكون الطبيب متقنا لعلمه وفنه ليقدم لمريضه أفضل رعاية صحية ممكنة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**"، ويقول صلى الله عليه وسلم: "**من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن**". ومن هنا يتأكد أن حذق الطبيب لعلمه وإتقانه لعمله وتكوينه المستمر في مجال تخصصه أمر واجب وهي مسؤولية يجب عليه أن يعطيها حقها.

1. أن يصون لمريضه حرمته وعرضه وماله.
2. أن يكتم سر مريضه.
3. أن يكون على علم بالأحكام الشرعية المتعلقة بمجال عمله (معرفة الأدوية والوسائل العلاجية المباحة أو المحرمة، معرفة متى يمنع مرضاه من القيام ببعض العبادات...) حتى يقدر على إرشاد المريض وتوجيهه على ضوء المعرفة الطبية والحكم الشرعي

المطلب الرابع: علاقة الطبيب بالمجتمع

إن مسؤولية الإسهام في إصلاح المجتمع، تشمل كل فرد وبالأخص ألائك الذين نالوا حظا من الثقافة والتعليم، ولهم مكانة اجتماعية ويعرفون عن قرب مشاكل البيئة من حولهم، والطبيب وكل من يعمل في مجال الرعاية الصحية تتوفر لديهم أكثر هذه الجوانب، فهم مطالبون إذا بأن يكون لهم دور قيادي في إصلاح المجتمع، وأن لا يقتصر دورهم على علاج المرضى بغية النجاح الشخصي ماديا واجتماعيا، بل يكون لهم دور أكثر بعدا وشمولية، خاصة إذا ما تذكرنا تعريف الصحة الذي وضعته منظمة الصحة العالمية، بأنها "التكامل الجسدي والعقلي والنفسي والاجتماعي، وليس مجرد الخلو من الأمراض". إن أبعاد الإصلاح الاجتماعي التي على الطبيب الاعتناء بها ليست لها حدود مرسومة، وتختلف باختلاف المكان والزمان واختلاف الحاجة القائمة في المجتمع، والاستعداد الشخصي للطبيبولكن أفضل دور يمكن أنه يؤديه الطبيب هو أن يسهم في تحقيق التكافل الاجتماعي، حتى يستطيع أفراد المجتمع أن يتغلبوا على مشاكل التخلف والفقر والمرض.

والسؤال الذي نطرحه هو: ما الذي يستطيع أن يفعله الطبيب لإصلاح المجتمع: هناك ثلاثة أشياء يمكنه أن يسهم فيها:

أولا: الخدمات الصحية

فالطبيب المسلم يستطيع أن يسهم ببعض وقته لخدمة المرضى المعوزين، سواء كان في حقل الطب العلاجي، أو الطب الوقائي، أو البحوث أو التدريب، أو الإغاثة العاجلة وهذا يدخل في إطار الوقف التخصصي أو زكاة العلم، ومن هنا أهمية الجانب الإيماني الذي يدفع الطبيب للإكثار من الأعمال التطوعية ابتغاء مرضاة الله وثوابه، ولو نظرنا في آيات الكتاب المبين وفي أحاديث الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم لوجدنا كثيرا منها يوصي بمعاني التكافل الاجتماعي في شتى صوره بما في ذلك المحبة، والتواد والتراحم والتعاون والإيثار والإحسان، وبالعودة إلى النصوص الدينية سيجد كل فرد – طبيبا أو غير طبيب – حافزا لأن يكون له دور إيجابي في تحقيق التكافل الاجتماعي

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَيَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚوَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚوَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖوَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖإِنَّاللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة:٢)، ويقول صلى الله عليه وسلم: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"، ويقول صلى الله عليه وسلم: "مَنْ نَفَّسَ عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه".

ثانيا: التنمية الاجتماعية والاقتصادية

يستطيع الطبيب أن يسهم ليس بجهده فقط، ولكن أيضا باستقطاب جهود الآخرين من أطباء وغير أطباء من العاملين في مجال التعليم والدعوة والتنمية الاجتماعية والمشاريع الاقتصادية، وجميعها روافد تنتهي بتحسين الوضع الصحي، لأن الفقر والجهل والمرض هي دائرة مغلقة يأخذ بعضها برقاب بعض، فهي السبب والنتيجة في آن واحد، فالطبيب قادر على الإسهام في إشاعة روح المحبة والتعاون والإيثار في مجتمعه , والوسائل لتحقيق هذا التعاون كثيرة ومتعددة ، المهم هو ضرورة الإيمان بالفكرة ووجود الحوافز لتحقيقها، ولابد من التأكيد على فعالية استعمال الخطاب الديني من آيات وأحاديث لينجح الطبيب في هذه المسؤولية.

تبيّن الأبحاث أن للتطوع دوافع متعددة "منها ما هو شعوري ومنها ما هو لاشعوري، وهذه الدوافع تتشابك وتتفاعل، وينتج عنها في النهاية الإلزام الذاتي، الذي يدفع المتطوع للعمل، ومن أمثلة الدوافع الشعورية للمتطوع، الرغبة في قضاء وقته الحر بطريقة مثمرة، أو الرغبة في إقامة صداقات مع الآخرين، أو الرغبة في تنمية مهاراته المهنية، أو الشعور بالجميل نحو مؤسسة سبق أن قدمت له خدمات اجتماعية معينة...، أما الدوافع اللاشعورية فمن أمثلتها، الرغبة الكامنة في زيادة الشعور بالأمن والانتماء أو إثبات الذات، أو حب الظهور"، ولعل أهم الدوافع التي لم يشملها هذا التبيان السابق هو الدافع الديني وتأثيره على العمل التطوعي.

وهناك عدة أبحاث بينت أهمية الدافع الإيماني في تشجيع انخراط أفراد المجتمع في العمل التطوعي، أذكر على سبيل التمثيل دراسة ميدانية قام بها الدكتور زكريا محمد عبد الهادي على 80 متطوعا من هيئة الهلال الأحمر الإماراتي وهي مؤسسة لها حضور واسع بين المواطنين، وتجذب الكثير من المتطوعين؛ أوضحت هذه الدراسة أن ما شجع 83% من المتطوعين على الانخراط في العمل

التطوعي هو ابتغاء الأجر والمثوبة من الله. كما أن العمل الخيري عند الغرب انطلق من دوافع دينية عقدية دينية فنجد عدة نصوص من العهد القديم عند اليهودية تحث على الأعمال الخيري، والرعاية والاجتماعية، والدليل على ذلك "الوصايا العشر" التي نزلت على نبي الله موسى عليه السلام ومنها على سبيل التمثيل:

طوبى لمن ينظر للمساكين في يوم الشر ينجيه الرب.

من يرحم الفقير يقرض الرب، وعن معروفه يجازيه.

كما جاء في العهد الجديد "الإنجيل" بعض النصوص التي تبرز الأصول الأولى للرعاية الاجتماعية والعمل الخيري ومنها:

من سألك أعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده.

بالصدقة يقبل الصوم، ومعها تقبل الصلاة.

الله سبحانه وتعالى يكافئ من يشبع الفقير.

إلا أنه نظرا لتحولاتهم الاجتماعية غاب المنحى الديني في العمل التطوعي في الغرب فترات طويلة، ولكن بدأت المطالبة بالاهتمام بالجوانب الروحية في الخدمات الاجتماعية والمجتمعية، وهناك عدة أبحاث أقيمت في الغرب بينت أهمية المنحى الديني في إنجاح العمل التطوعي، أذكر منها: مقالين للباحثة الاجتماعية سو سبنسر Sue Spencer. الأول بعنوان: "الدين والخدمة الاجتماعية" حاولت أن تقرب فيه بين وجهات نظر رجال الدين والمتخصصين في الخدمة الاجتماعية، وختمت المقال مؤكدة على أن الحاجة ملحة لإعطاء اهتمام أكبر للدين باعتباره عاملا مهما ومؤثرا في حياة الإنسان وفي النظام الاجتماعي. والمقال الثاني بعنوان: "الأديان والقيم الروحية في ممارسة خدمة الفرد" خلصت فيه إلى أهمية أخذ المعتقدات الدينية في اعتبار المهتمين بأعمال الرعاية الاجتماعية.

وفي عام 1962م كتب هيربرت ستروب Herbert Stroup مقالا يحمل عنوان التحديات المشتركة التي تواجه الدين والخدمات الاجتماعية فنادى بضرورة إعادة العلاقة بين الدين والخدمة الاجتماعية اللذين كان لهما تاريخهما المشترك لعدة أجيال، قبل انفصالهما على يد أصحاب الاتجاه العلماني الإنساني الذي سيطر على المجتمع، وانتهى بعد شرح تلك التحديات إلا أن مصلحة كل من الدين والخدمة الاجتماعية في تقاربها. كما اهتم مارتن مارتي Martin Martyوتوالت بعد ذلك المقالات والأبحاث, واعتبارا من الثمانينات، يلاحظ ظهور عدة مؤشرات تدل على زيادة الاهتمام بالدين وبالجوانب الروحية من قبل المتخصصين الغربيين في الخدمات الخيرية والاجتماعية، وبالأخص في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وعقدت مؤتمرات ولقاءات لمناقشات هذا الموضوع، وأضيفت مقررات دراسية تتعلق بالدين، ومتطلبات إعداد الأخصائيين الاجتماعيين وظهرت مجلات علمية متخصصة في هذا المجال:

الأولى: مجلة النواحي الروحية في الخدمة الاجتماعية Spiriliality and social work journal.

والثانية: البيان في النواحي الروحية في الخدمة الاجتماعية Spiriliality and social workcommunicator.

وعلى الرغم من أن دين وتراث أمتنا يحث ويدفع للعمل التطوعي والخيري، وتاريخها يحفل بنماذج وأمثلة مشرقة، إلا أن العمل التطوعي في عالمنا الإسلامي لا يزال في بواكره بالمقارنة مع بعض الدول الغربية التي طورت العمل الخيري واتجهت نحو الاتفاقيات والتكتلات بين الجمعيات والهيئات المجتمعية لإنجاح مشاريعها والرفع من مستوى مواطنيها في جميع المجالات.إن ضعف الاهتمام بالعمل التطوعي في بعض مجتمعاتنا الإسلامية يوجب علينا أن نعمل جادين لإيقاظ الهمم وتحفيز الجميع للانخراط في العمل التطوعي وعلى رأسهم الأطباء والعاملين في قطاع الصحة، لأن عليهم المسؤولية الكبرى في المحافظة على الصحة وقاية وعلاجا خصوصا في الحالات التي تعاني من ابتلاء المرض والفقر والجهل، وترى الشريعة أن مساعدة هؤلاء من باب: "من أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا" يقول سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَالنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (المائدة: 32).

وننهي هذا المبحث بكلمة عن **القسم الطبي** الذي اعتاد خريجو كليات الطب أن يؤدوه في حفلات التخرج. ومن المعروف أن أول من صاغه هو أبو قراط، وهناك من يرى أن قدماء المصريين قد سبقوا إليه، ثم تطورت فكرة القسم وأسلوبها عبر التاريخ، وقد ترجم هذا القسم في العصر العباسي وإن لم تخل صيغته آنذاك من شيء من الوثنية. ولازال القسم يؤدى في كثير من كليات الطب في أنحاء العالم مع اختلاف في النصوص، وارتأيت أن أذكر في هذا البحث الصيغة المعتمدة في كليات الطب ببلدنا المغرب وهي: "بسم الله الرحمن الرحيم أقسم بالله العظيم أن أراقب الله في مهنتي، وأن لا أقصر أبدا في مسؤوليتي وواجباتي تجاه المريض وكرامته الانسانية، وأن أصون حياة الانسان في كافة أطوارها في كل الظروف والأحوال باذلا وسعي في إنقاذها من الهلاك والمرض والألم والقلق وأن أحفظ للناس كرامتهم وأستر عورتهم وأكتم سرهم, وأن أكون من وسائل رحمة الله مسخرا كل رعايتي الطبية للقريب والبعيد, وأن أثابر على طلب العلم المسخر لنفع الانسان لا لأذاه وأن أبجل أساتذتي الذين تعلمت على أيديهم مبادئ مهنتي، وأعترف لهم بالجميل وأبقى دوما وفيا لتعاليمهم , وأن أعلم من يصغرني وأن أكون أخا لكل زميل في المهنة الطبية متعاونين على البر والتقوى وأن تكون حياتي مصداق إيماني في سري وعلانيتي نقية مما يشينها تجاه الله ورسوله والمؤمنين والله على ما أقول شهيد".

كما أن هذا القسم يكتب في آخر صفحة كل أطروحات طلبة الطب والصيدلة بالمغرب بالإضافة الى القسم به في حفل التخرج، والذي نريد أن نقوله أن العبرة ليست بقسم يؤديه الطبيب وقد يذهب أدراج الريح ولكن العبرة أن يثقف الطبيب الثقافة الاسلامية ويتربى على أخلاقها حتى تصبح جزء من كيانه ومعتقداته، ولا تعود كلمات يتشدق بها.

الفصل الثالث: أهمية استثمار الخطاب الديني في التوعية الصحية

يجد الطبيب المسلم في كتاب الله وسنة رسوله عدة نصوص يستطيع أن يستفيد منها في التوعية الصحية لكل من المريض والصحيح على السواء، للمريض حتى يتفادى مضاعفات المرض، وللصحيح كي يحافظ على صحته. وفي مجتمعاتنا الإسلامية لا شيء يمكن أن يقنع الناس، وينفذ إلى عقولهم وقلوبهم وضمائرهم، ويصحح من سلوكهم، مثل آية من القرآن أو حديث من المصطفى صلى الله عليه وسلم.

المبحث الأول: مظاهر عناية الإسلام بالوقاية من الأمراض الجسدية

أول توجيهات الدين في هذا الباب حثه على الطهارة، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: 222)، فالغسل والوضوء من شروط العبادات. وتؤكد الأحاديث على نظافة أعضاء بعينها، كالفم والأسنان واليدين، مع تخليل الأصابع وغسل البراجم. وتفيد أعمال من هذا القبيل في التخلص من الإفرازات والعرق والدهون وكلما يؤدي إلى تكاثر الجراثيم. ولما كانت نظافة البيئة من شروط الصحة فقد اعتبرت السنة أن إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان. وأوصت السنة المطهرة بعدم تضييع الماء وعدم تلويثه. وفي مجال التغذية فإن التوجيه الأساس يهو ملازمة الاعتدال، فقد نقلت كتب التراث أن رجلا من نحلة أخرى سأل مسلما هذا السؤال وقال: هل جاء في كتابكم، يعني القرآن شيء عن الصحة؟ فقال المسلم: نعم، عندنا فيه نصف آية هي قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف:32) فقال السائل: نصف آية جمعت الطب كله، وقد وردت في هذا التوجيه أحاديث نبوية كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم: "ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه"، وحرم الشرع الإسلامي بعض الأشربة والأطعمة، وعدها من الخبائث ويدخل في المحرمات بعضُ لحوم الحيوانات التي تشكل بؤر التجمعات الكائنات الدقيقة المضرة بالصحة.

كما ضبط الإسلام العلاقات الجنسية ورغب في الزواج تحصينا للصحة، قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَنْ يُكْرِههُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (النور:33) وهكذا فإن فلسفة الإسلام في المحرمات هي منع الضرر عن الإنسان نفسه وعن غيره، وجلبُ المصالح ودرءُ المفاسد.

ومن توجيهات الإسلام في الوقاية: عزل المريض عن الأصحاء، وممارسة الرياضات النافعة، والترويح المباح عن القلوب حيث روي عن سيدنا علي كرم الله وجهه قوله: "روحوا عن قلوبكم ساعة بعد ساعة، إن القلوب إذا كلت عميت". ومن طبيعة هذه التوجيهات أنها من متممات الإيمان ومجلبة للثواب وللرضوان علما بأن أسلوب الدين مبني على المزاوجة بين الترغيب والترهيب، وهذه المزاوجة مقبولة مشكورة اليوم ويعتمد عليها بنجاح في عالم التربية والعلاج السلوكي. فالوازع الديني بتأثيره البالغ يجعل على النفس رقابة أقوى من سلطة الزجر والقانون.

المبحث الثاني: مظاهر عناية الإسلام بالصحة النفسية

الأمراض النفسية هي من أكثر الأمراض انتشارا في عصرنا الحالي، وتصيب عددا كبيرا من الناس في مختلف مراحل العمر، ومن مختلف المستويات الاقتصادية والاجتماعية، وتتسبب في معاناة يمتد تأثيرها إلى الأسرة والمجتمع، ويمكن تقسيم الأمراض النفسية إلى:

– الدهانات Psychoses: وهي الأمراض التي تؤثر في عقل الفرد، فينفد تبصره وتضعف كفاءته وقدرته في الحكم على الأمور، ومن نماذجها مرض الفصام.

– العصابات Nevroses: وهي نوع آخر من الأمراض النفسية التي لا تؤثر على عقل الفرد، لكنها تنقص نشاط بعض الشيء، ومن نماذجها الوسواس القهري والقلق المرضي والاكتئاب.

– الأمراض النفسية الجسدية "Psychosomatiques" وتسمى "أمراض العصر" وتضم أنواعا ومسميات عديدة، وتدخل عدد من الأمراض ضمن هذا النوع:

– ففي اختصاص أمراض القلب والشرايين نجد ارتفاع ضغط الدم الذبحة الصدرية؛

– وفي اختصاص الأمراض الجلدية نجد الصدفية "Psoriasis"، والثعلبة Pelade؛ وهو تساقط الشعر على شكل بقع، سواء في فروة الرأس أو اللحية، والطفح الجلدي وحكة الجلد...

– وفي أمراض الجهاز الهضمي نجد (القولون العصبي "fontionnellesColopathies"وقرحة المعدة، والتهاب جدار المعدة gastrite؛

– وفي أمراض الجهاز التنفسي نجد الربو asthme(الضيقة) والسعال ...

– وفي الأمراض الاستقلابية نجد داء السكري، النحافة الشديدة، والسمنة...

لذلك فإن الطبيب في معالجة مثل هذه الحالات، بالإضافة إلى العلاج الدوائي ينصح دائما وفي كل الحالات بالابتعاد عن الضغوط النفسية، لأن سلامة النفس أساسية لسلامة النفس والجسد على السواء، كما أن الالتزام بمشاعر الرضا والتفاؤل سبيل للوقاية من كل الأمراض، ومن ثم كان تجنب الضغوطات النفسية ضروري للوقاية من هذه الامراض.أكد المختصون أن للإيمان تأثيرا في التغلب على القلق لأن الانسان في صراعه مع الطبيعة قد حقق انتصارات بواسطة العلم، أما في صراعهم عن سفه فلم يحرز سلطة مماثلة، والدين هو صاحب هذا الميدان. قال النبي صلى الله علي هو سلم: "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خير اله" أما المعرض عن ذكر الله فيكون في شقاء وضيق لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه:124).

. والضنك هو الضيق والشدة، ونكد العيش وكثرة الخوف وشدة الحرص والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها.

وبعد هذه النظرة العامة، نشير إلى بعض الأحوال الشعورية التي تقرب المؤمن من الطمأنينة ومن الحالة الصحية السوية، وأهم هذه الأحوال سبعة، يضاف إليها أثر أداء الأركان الخمسة:

أولا: استجابة المؤمن لنداء الفطرة.

ثانيا: اهتداء المؤمن لسر وجوده ففي الإيمان بالوحي وحده أجوبة عن أسئلة الوجود، أسئلة المبدأ والمعاد مما يذه ب القلق وتطمئن به النفس.

ثالثا: الأنس بالله ودفع شعور الغربة :يعاني الإنسان المعاصر على الخصوص من عرض "الشعور بالوحدة" وهيمن أهم أسباب الاضطرابات النفسية، وانتهى رأي المنصفين من الأطباء إلى أن العلاج الأمثل لهذا العرض النفسي هو اللجوء إلى الدين، وإشعار المريض بمعية الله والاعتصام به.

وهو القائل سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: 4).

رابعا: عدم الندم على الماضي

فالمؤمن يستشير ويستخير ربه قبل القيام بأي عمل ثم لا يندم على ما لم يتحقق من ذلك ويوقن أن الخير فيما قدره الله لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 216).

خامسا: الرضا بالحاضر

إن الرضا من أهم دوافع السكينة والطمأنينة، ويستقيم حال الرضا مع الفهم الصحيح للابتلاء في الصحة **والنفس** وفي الولد والمال وفي الأحبة. قال صلى الله عليه وسلم: "إن عظم الجزاء من عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم". والمؤمن المبتلى لا ينقطع أمله ليقينه في قوله تعالى: ﴿ فإنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح:4-5) ومن خلال التجربة الميدانية هنا كحالات مرضية متشابهة، تعطى لها نفس العلاجات. والملاحظ أن عند المرضى المتفائلين برحمة الله وقدرته، ينجح العلاج وتعظم حظوظ الشفاء، أما عند الساخطين عن حالهم الذين ينتابهم القلق والتوتر، فإن حالتهم قد تتفاقم ولا يتحملون العلاج.

سادسا: المؤمن لا يخاف من المستقبل : تقوم أغلب الاضطرابات النفسية على الخوف من المستقبل، الخوف من المرض من الموت أو الخوف المتعلق بالرزق، والمؤمن يصغي إلى قوله تعالى :﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:51) وامتدادا لذلك يحض الدين على الاشتغال وملء الوقت بالصالحات، وينهى عن الفراغ والكسل والاتكال، وهذه كلها من دواعي القلق والتوتر.

سابعا: التحلي بالأخلاق الحسنة

حث الإسلام على الحلم والصدق والوفاء والأمانة، مما يعود بالخير على الفرد والمجتمع، ونهى عن الأخلاق المنحرفة التي تسبب انتشار المشاعر السيئة بين الناس، كالحقد والغيبة والنميمة والحسد والبخل والكذب والرشوة، والعنف. على أن العاصم من السقوط في الأخلاق الذميمة هو ترك الغضب. حتى إن الإمام أحمد فسر حسن الخلق بترك الغضب. جاء رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: أوصني، قال: لا تغضب، فردد مرارا، قال صلى الله عليه وسلم: "لا تغضب". وفي أحاديث أخرى بين لنا النبي صلى الله عليه وسلم طرقا عملية إعجازية تساعدنا على تجنب الغضب. "إذا غضب أحدكم فليسكت". "إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع".وأمر صلى الله عليه وسلم الغاضب بالوضوء لينطفئ غضبه.

وبعد الإشارة إلى هذه الأحوال نذكر أثر القيام بالأركان.

أولا: **الصلاة:** ى: فالرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. وكان يقول: "أرحنا بها يا بلال."

ثانيا: **الصوم:** يجمع الباحثون أن للصوم أثرا ملموسا في تربية الإرادة القوية والتمرن على مقاومة شهوة النفس والبدن. وقد أنجزت في كليات الطب أطروحات عديدة تبين الفوائد الصحية للصوم،ولكن شريطة عدم الإفراط في الأكل في الفطور والسحور.

ثالثا: **الزكاة:** وعلاقتها بصحة الفرد بالإضافة إلى صحة المجتمع، تكمن في كون النفس التي تنفع الغير كثيرا ما تصفو وقليلا ما تضطرب.

رابعا: **الحج:** ويتمثل الجانب الوقائي النفسي في أداء فريضة الحج في ما يصاحبه من عقد نية التوبة، والعزم على بداية حياة جديدة كيوم ولدته أمه. والتوبة من الذنوب تؤدي إلى انشراح الصدر، لأن الإنسان العاصي يكون في صراع داخلي مع فطرته السليمة، فهو يؤنبه ضميره دائما على معصيته، وعندما يتوب يتخلص من عقدة الذنب أو ما يسميه البعض بالجلاد الباطني Le bourreau intérieurلأن المعاصي كلها سموم للقلب وأسباب لمرضه وهلاكه.

المبحث الثالث: أهمية دراسة الطبيب للقواعد الفقهية

إن القواعد الفقهية من أفضل ما يعين العاملين في المجال الطبي من غير المتخصصين في الشريعة على فهم الأحكام الشرعية للمسائل الطبية الكثيرة لسهولة حفظها، وجمعها لكثير من الفروع الفقهية، وسهولة تطبيقها لمن فهمها، مما يغني عن حفظ الكثير من الفروع، ويمكن الأطباء وغيرهم من العاملين في المجال الطبي من فهم الأحكام الشرعية وتطبيقها خاصة عند عدم توفر المفتي كما في الحالات الإسعافية ونحوها. وقد ورد عن عمر رضي الله عنه انه قال **"لا يبع في سوقنا إلا من قد تفقه في الدين"** والمحافظة على الدين والأرواح والأعراض أعظم من المحافظة على الأموال، لذا ينبغي على الطبيب معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بمجال عمله وعلى سبيل المثال: دراسة أحكام الممارسات الطبية الحديثة في الفقه الإسلام يمثل تشريح جثث الموتى، زرع الأعضاء، قتل الرحمة، موت الدماغ، الإجهاض، التلقيح الاصطناعي، بنوك

المني، بنوك الحليب، جراحة التجميل، مشكلة الخنثى؛

دراسة الأحكام الفقهية المختصة بالعبادات كالطهارة والصلاة والصوم في الحالات المرضية والعرضية؛ ما يتعلق بأحكام الجمع بين الصلاتين أو تأخير الصلاة عن وقتها من أجل العمل الطبي.

معرفة الأدوية التي أباحتها الشريعة من الأدوية المحرمة.

معرفة متى يجوز للطبيب منع المريض من القيام بالعبادة أو بعضها.

معرفة الأحكام المتعلقة بالمحتضر.

معرفة الفرق بين الضرورة والحاجة وما يترتب عليه من أحكام.

وهذا ما يميز الطبيب المسلم عن غيره، فيا حبذا لو استشعر الطبيب المسلم المسؤولية المناطة به، والأمانة التي يحملها، وأنه بعلمه الشرعي والطبي يحقق بإذن الله مصلحتين: مصلحة الأبدان، ومصلحة الأرواح، ويبرأ مفسدتين، مفسدة عائدة على الجسد، وأخرى عائدة على النفس، فكم من طبيب علق قلب مريضه بالله، وذكره برحمته وفضله سبحانه وتعالى، وكم من طبيب طمأن مريضه وزرع فيه روح الأمل والثقة في قدرة الله, وكم من مريض لقن مريضه الشهادة عند احتضاره، وصبر ذويه وأقاربه عند فراقه، فذاك الطبيب المسلم الذي بورك له في علمه وعمله، وجمع بين خيري الدنيا والآخرة

توصل البحث إلى الخلاصات والنتائج الآتية مشفوعة بتوصيات بحثية :

§ أن قضية الرعاية الصحية هي من الاولويات التي يجب على الجميع الإهتمام بها لأنها من متطلبات التنمية ومن مقومات الحياة.

§ ان المسؤولية الأولى في الحفاظ على الصحة تقع على الأطباء والعاملين في قطاع الصحة، ويأتي بعد ذلك دور كل من الدولة والاسرة والمدرسة والمسجد والإعلام، قصد تظافر الجهود بهدف تعميم تربية صحية تكون حصنا للأفراد من عدد كبير الأمراض التي توصل البحث العلمي لسبل الوقاية منها, وكذلك بهدف التكافل مع المرضى المعوزين لرعايتهم وتوفير العلاج المناسب لهم ,ولا يتأتى هذا في مجتمعاتنا إلا بتقوية الوازع الديني لدى جميع شرائح المجتمع.

§ أن الحكومات وبخاصة في الدول النامية لا تستطيع بمفردها أن تحقق الرعاية الصحية الكاملة لكل مواطنيها، مع وجود نقص ملحوظ في عدد المهنيين مما يستدعي مشاركة المتطوعين من الأطباء والعاملين في قطاع الصحة سواء من أجل تكثيف البرامج الوقائية أو المساعدة في توفير ظروف العلاج للمرضى المحتاجين.

§ أن على الأطباء والعاملين في قطاع الصحة أن يمارسوا مهنتهم على أقصى درجة من الكفاءة والأمانة وجعل مصلحة المريض فوق كل المصالح ,و ان لا يقتصر هدفهم على ما يحققونه من نجاح شخصي واجتماعي، من ربح مادي وجاه وشهرة بل ينظروا إلى مهنتهم أنها سبيل للعطاء و الإصلاح.

§ أن الإيمان بشرف المهنة هو أهم دوافع العاملين في الخدمات الصحية لأن يراعوا الخلق الحسن في تعاملهم مع الناس لأن العمل الطبي هو في أصله عمل أخلاقي، ولا تقوم له قائمة إلا بالأخلاق، وإذا كان مقام الطبيب يتحققان ويقدران بحسب ما له من علم وخبرة وتجربة ومهارة، فإن النجاح الفعلي في ذلك كله يتوقف على مقدار ما له من محاسن الأخلاق: من رأفة ورحمة وشفقة، ومن رقة ورفق ولين، وصبر وأناة وتواضع... ومنبع سائر الأخلاق هو تقوى الله لأن الشخص المتقي يستشعر مدى فضل الله عليه ونعمه فيتقيه، وهو يستحيي من ربه الذي يراه, وهو يخاف عذاب الله وعقابه فيتقيه، و يدرك قبح الأفعال السيئة وعواقبها عليه، فيعتبر بها ويتعظ منها فيتقيها...

§ أن على الطبيب أن يساير ما استجد من العلم والمعرفة في مجال تخصصه مع الإلتزام بالتكوين المستمر، ويعمل جادا على تهذيب نفسه والأخلاص في تعامله مع مرضاه فيهتم بجوانب المريض الثلاث الجسد والعقل والنفس مما يرفع حظوظ نجاح العلاج المادي .

§ ان الطبيب الذي يتقي الله في مهنته قمين أن يعيش حياة كريمة هو وأسرته، و يكسب محبة الناس له وتقديرهم له، وينال الأجر والثواب من عند الله لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

§أن الأطباء مسؤولون على إصلاح المجتمع لما يتميزون به من ثقة من جميع أفراد المجتمع، فعليهم إيقاظ هم الآخرين من أطباء وفاعلين في مجالات أخرى للإنخراط في العمل التطوعي لتحقيق التنمية الاجتماعية الشاملة مما يعود بالخير على جميع المجالات بما فيها الجانب الصحي وذلك بتحسين ظروف العيش ورفع الجهل والحد من الفقر مما ينعكاس إيجابيا على المستوى الصحي للمواطنين.

توصيات:

تحقيق مقصد حفظ الصحة يتوقف كثيرا على تخليق مهنة الطب وهذه بعض التوصيات لبلوغ هذا الهدف:

أهمية تنشئة الأبناء على التحلي بالأخلاق الحسنة وذلك من خلال وسائط التنشئة المختلفة كالأسرة والمدرسة والإعلام بدور متناسق ومتكامل الجوانب في غرس التضحية والإيثار وروح العمل التطوعي لنفع الآخرين منذ مراحل الطفولة المبكرة لأن خلق الطبيب وسلوكه تحدده القيم التي أحاطت به أثناء طفولته وصباه، في البيت والشارع والمدرسة،وفي كلية الطب وهو في كل هذه المراحل، إذا اعتقد أن النجاح يكمن في التفوق المادي، فلن نستطيع أن نطالبه بغير ما ألف، ومن هنا فإنه يجب أن يتعلم منذ نشأته الأولى، أن النجاح الحقيقي هو في ما يستطيع أن يقدمه للآخرين.إغناء المقررات الدراسية ببعض البرامج التي تركز على الأخلاق ومفاهيم العمل التطوعي وأهميته ودوره التنموي ويقترن ذلك ببعض البرامج التطبيقية، مما يتبث هذه القيمة عند الشباب.

ضرورة مراجعة مناهج تدريس علوم الطب مع تكثيف المواد التي تهتم بأخلاقيات المهنة وفقه الطبيب, والمسؤول الأول عن هدا هم أساتذة كليات الطب عليهم أن يحددوا أهداف مناهج التعليم الطبي بما يتوافق مع ثقافتنا ومعتقداتنا الدينية عوض أخذها من الدول الغربية، دونما تفكير ولا تدبير.

على أساتذة الطب أن يكونوا قدوة لطلبتهم وعليهم إدماجهم في أعمال تطوعية خلال سنوات التكوين كالمشاركة في قوافل طبية في القرى النائية، كما يجب إحياء التراث الإسلامي في مجال الطب حتى يتعرف طلبة الطب والأطباء على ما بذله أسلافنا من تفاني في البحث العلمي والإخلاص في العمل

والتحلي بالأخلاق الإسلامية النبيلة والإلتزام بشرائع الدين والتطوع بأوقاتهم وأموالهم فانتشرت البيمارستانات والمكتبات الوقفية ففتح الله عليهم وتوصلوا إلى اكتشافات رغم الإمكانات التقنية القليلة وتجلت فيهم الآية (واتقوا الله ويعلمكم الله).

ضرورة تبني برامج توعوية منسجمة مع التقاليد والقيم الدينية والثقافية للمجتمع مما يضمن فعاليتها في تصحيح السلوكات كما على الأطباء معرفة المقاصد العامة والخاصة والقواعد الفقهية التي تمكنهم من التعرف على الأحكام الشرعية المتعلقة بمجال عملهم والاهتمام بالمريض ككل جسدا ونفسا وروحا، واختيار وسائل العلاج التي لا تتعارض مع أوامر الشرع الإسلامي , مع ضرورة وضع آلية تواصل بين علماء الشريعة وعلماء الطب على شكل مؤسساتي، نظرا لاستمرارية البحث العلمي والاكتشافات المتجددة في مجال وقاية وعلاج الأمراض.

وأختم بالتاكيد على اننا مهما حاولنا أن نجد في مناهج البشر ما يمكن أن يربي الطبيب، ويهذب سلوكه، فلن نجد مثل منهاج الله وتعالى، الذي جاء في كتابه الكريم، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم الذي يقوي الوازع الديني ومن هنا تتجلى أهمية التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الطب عند الأطباء.

المراجع

1- البخاري، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، (2/697).
2- أبو داود، السنن، باب ما يؤمر من القصد في الصلاة (1/519).
3- سورة الإسراء، آية: 82.
4- عبد اللطيف البغدادي، الطب من الكتاب والسنة، مقدمة عبد المعطي قلعجي، ص 11.
5- البيهقي، السنن، باب صيام التطوع والخروج منه قبل تمامه، (4/275).
6- مسلم، باب في الأمر القوة وترك العجز (4/2052).
7- ابن ماجة، السنن كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (4/497).
8- ابن القيم، زاد المعاد (3/809).
9- النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق (4/367).
10- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت ص. 541.
11- الدكتور زهير أحمد السباعي، والدكتور محمد علي البار، كتاب "الطبيب أدبه وفقهه"، دار القلم دمشق، ص. 157.
12- أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الجراني، (ولد سنة 880م وتوفي سنة 943م) طبيب وعالم فيزياء ورياضي وفلكي، وهو أبو إبراهيم بن سنان، انتقل الى بغداد في القرن الرابع الهجري، وعمل طبيبا لدى الخليفة المقتدر بالله العباسي، وقد أسلم في عهده، ثم خدم الخليفة القاهر بالله ثم الخليفة الراضي بالله.
13- حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت سنة 1988م، ص. 196.
14-نفس المصدر.
15-أرسطو طاليس: أحد مشاهير الفلسفة والعلوم الحكمية، لازم أفلاطون وتتلمذ عليه مدة عشرين سنة، انتهت إليه فلسفة اليونانيين حيث كان خاتمة حكمائهم، وسيد علمائهم.
16-ابقراط: أبو الطب، إمام فهم مشهور، وأحد أعمدة الحكمة، صنف في الطب تآليف مشهورة بين الأطباء وتلامذة الطب، نشر الصناعة الطبية بين جميع الناس، وحدد لذلك شروطاً، ووضع لذلك القسم المعروف عند الأطباء، النديم: الفهرست، ص. 346. القفطي: أخبار العلماء، ص. 64. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص. 43.
17-جالينوس: أحد أعمدة الحكمة السبعة، وخاتم الأطباء القدماء، لا يدانيه أحد من القدماء في صناعة الطب فضلاً عن أن يساويه ،صنف كتباً طبية رائعة ظلت أهم مصادر الطب وتعلمه حتى أواخر القرن الرابع الهجري حين ظهرت كتب الأطباء المسلمين وحلت محل كتب القدماء. لمزيد من المعلومات عنه انظر: القفطي: أخبار العلماء، ص. 85، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص. 109.
18-السفسطة: قياس مركب من الوهميات، والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته. الجرجاني: التعريفات، ص. 124.
19- السيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة الثانية عشر، جدة: دار العلم للطباعة والنشر، 1982 م، ص. 3351 - 3387.
20-سورة العلق، آية من 1-4.
21- سورة الزمر، آية 9.
22- سورة فاطر، آية 28.
23- رواه البيهقي.
24- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1969م، ص. 7، 438، 565، 689.
25- عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب الشعب، ص. 133.
26- أخرجه البيهقي.
27- أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه.
28- سورة المائدة، آية 2.
29- رواه البخاري.
30- حديث 1946، كتاب البر والصلة، جامع الترمذي، الكتب الستة، بأشراف صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، الرياض، ط. 1، 1999.
31-إبراهيم عبد الهادي المليجي، الخدمة الاجتماعية من منظور تنظيم المجتمع، رؤية واقعية، ط. 1، المكتب الجامعي الحديث، 1991، ص. 71.
32- الدكتور زكريا محمد عبد الهادي: أستاذ الفكر الإسلامي المشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، بحث قدم في مؤتمر العمل الخيري الخليجي الثالث بدبي، 2220 يناير 2008م.
33- Spencer, Sue (1956) religion and social work, social work, vol. 1, n° 3, (19-28).

34- Stoup Herbert (1962) the common perducament of religion and social work April, (89-93).
35- Martin Marty: (1980) social service goldly and goldless – social service review Decembre (463-481).

36- سورة المائدة، آية 32.

37- سورة البقرة، آية 222.

38- سورة الأعراف، آية 31.

39- سورة النور، آية 33.

40- سورة طه، آية 124.

41- سورة الحديد، آية 4.

42- سورة البقرة، آية 216.

43- سورة الشرح، آية 5-6.

44- سورة التوبة، آية 51.